

الجواهري لواعج ومواجهات (2)

رواء الجصاني

... وهذه هي عصماء أخرى من قصائد الجواهري الوجدانية، الثائرة على النفس والمجتمع، والمقاييس السائدة في البلاد... وقد ضمها، كاملة ولأول مرة، ديوان "بريد الغربية" الصادر في براغ، بدعم من اللجنة العليا للدفاع عن الشعب العراقي الذي ترأسها الشاعر العظيم فور تشكيلها بعد انقلاب شباط الدموي عام 1963... وقد جاء مطلعها جواهيرياً كالعادة في ثورته الجامعة، مما جعل الكتاب يقرأ من عنوانه:

يا غريب الدار

مَنْ لَهْمٌ لَا يُجَارِي ، وَلَا هَاتِ حَيَارَى
ولمطويٍّ على الجمر سراراً وجهاراً...
مَنْ لِنَاءِ عَافٍ أَهْلًا وَصِحَابًا ، وَدِيَارَا
تَخِذْ الْغَرْبَةَ دَارَا إِذْ رَأَى السَّذْلَ إِسَارَا
إِذْ رَأَى الْعَيْشَ مَدَارَاةَ زَنْمِيمٍ لَا يُدَارَى

... وفي مختلف مقاطع القصيدة التي تجاوزت أبياتها المئة والعشرين، يفيض الجواهري متباهياً بمواقفه التنويرية، مبرزاً سمات وقيماً تباها، ولم يخش ما يترتب عليها من أذى المعوزين والظلاميين، بل وراح يكررها في عديد كثير من شعره... إلا انه هنا شدد على الشموخ والاصرار، ولعله أراد بذلك مقدمة لما سيلبي من مواقف وحقائق:

ياغريبَ الدار لم يُخَلْ مِنْ الْبَهْجَةِ دَارَا...
تَأْخُذُ النَّشْوَةَ مِنْهُ ثُمَّ تَتَسَاهُ السُّكَارَى
يَا أَخَا الْفَطْرَةِ مَجْبُولَا عَلَى الْخَيْرِ انْفَطَارَا...
يَا سَبُوحًا عَاتِقَ الْمَوْجَةِ مَدَاً وَأَحْسَارَا
لَمْ يُغَازِلْ سَاحِلًا مِنْهَا وَلَا خَافَ الْقَرَارَا
يَا دَجِيَّ الْعَيْشِ إِنْ يَخْبُ دَجِيَّ النَّاسِ ، أَنْارَا...

ثم يعود الشاعر الكبير ليكتب ما يظنه يروض النفس، لتجاوز "الهزيمة" التي يشعر بها وحتى من الأقربين، خاصة وهو صاحب المآثر والمنابر، محملاً الذات جزءاً مما يعاني منه، بعد أن اختار نهج الثورة والتجديد، معيياً المهادنة والمساومة:

يَا غَرْيَبَ الدَّارِ وَجْهًا وَلِسَانًا ، وَاقْتَدَارَا...
لَا تُشْعِ فِي النَّفْسِ خُذْلَانًا وَحَوَّلَهُ انْتِصَارَا...
أَنْتَ شِئْتَ الْبُؤْسَ نُعْمَى وَرُبِي الْجَنَّاتِ نَارَا
شِئْتَ كَيْمًا تَمْنَحُ الثُّورَةَ رُوحًا أَنْ تَشَارَا...
عَبَدُوا دَرَبَكَ نَهْجًا فَتَعَمَّ دَتَ الْعِثَارَا
وَتَصَوَّرْتَ الرَّجُولَاتِ عَلَى الضَّرِّ اقْتِصَارَا...
يَا غَرْيَبَ الدَّارِ مَنَسِيًا وَقَدْ شَعَّ ادِّكَارَا
ذَنْبُهُ أَنْ كَانَ لَا يُلْقَى عَلَى النَّفْسِ سِتَارَا
إِنَّهُ عَاشَ ابْتِكَارَا وَيَعِي شُونَ اجْتِرَارَا

ولكي يعزز بالوقائع ما يشكو ويتهضم منه، وما يعيبه على أصحاب القرار وغيرهم، يبدأ الجواهري المباشرة في التصريح، غير مبالغ... فبعد كل عطائه الوطني والابداعي على مدى عقود، يعيش الرمز الوطني، المغترب بكل صعوباته وأرقه، صاباً جام الغضب على بلاد لم يستطع أن يمتلك فيها حتى "حويشة" بينما يتنعم الرائبون، والمنحنون... ثم يعود الشاعر لينوّه إلى حكم التاريخ اللاحق، وعلى الآتي من الأحداث، بل ومتنبئاً بها... نقول متنبئاً، وقد صدق بما قال وأوحى، وذلك هو أماننا، العراق وما عاشه من مأس حد التميز:

يا غريبَ الدار لم تكفلْ له الأوطانُ داراً
يا "بغداد" من التاريخ هُزءاً واحتقاراً
عندما يرفع عن ضميم أنالته الستار
حلائله ومَرت للوغدِ أخلافاً غزاراً
واصطفت يوماً وأجلت عن ضفافها كناراً...
يا لأجنادِ السفالات انحطاطاً وانحداراً
وجدت فرصتها في ضيعة القوم الغياري

... ولكي يهدأ من ذلك الغضب العارم، يروح الجواهري في الأبيات التالية حانقاً، محملاً زعامات ثقافية وسياسية، مسؤولة ما أحاق به من ظلم واجحاف... وهو يمثل هنا بالتأكيد نموذجاً للعشرات، بل المئات من المبدعين والمناضلين وغيرهم، ممن اضطروا للاغتراب، أو اختيار المنفى اضطراراً... ثم يتطوع بعدها الشاعر الرمز ليوزع صفات يعتقد بها بحق الذين تسببوا في تلك الأوضاع وما آلت إليه، بل وليبقي من ميسمه في جباههم وشماً "خالداً" يعيرون به جيلاً بعد جيل:

يا غريبَ الدار يا من ضربَ البيدَ قماراً...
ليس عاراً أن تؤولي من مسقين فراراً
دع مباءاتٍ وأجلافاً وبيئتين تجاراً
جافهم كالنسر إذ يأنفُ ديداناً صغاراً
خلقة صُبت على القجرة دعهما والفجاراً
ونفوس جُبلت طينتها خزيماً وعاراً
خلها يستل منها الحقدُ صلباً وفقاراً...
أنت لا تقدر أن تزرع في العُور احوراراً...

... وأخيراً، وإذ يحين "مسك" الختام والايجاز لكل ما سبق وأشير إليه من وقائع ورؤى، يكتب الجواهري "معاتباً" "أصدقاء" ظنهم، و"أدباء" و"مثقفين" أحبهم ولكنهم تجافوا، خوفاً أو تنصلاً... أو لأنهم "حيارى" حتى في أمورهم ذاتها، مما جعله يسعى حتى لأن يخلق الأعذار لهم:

يا غريبَ الدار في قافلة سارت وسارا
لمصير واحدٍ ثم تناست أين صاراً
سامح القوم انتصافاً واختلق منك اعتذاراً
عليهم مثلك في مفترق الدرب حيارى
سرر واياهم على درب المشقات سفاراً
فاذا ما عاصف الدهر بكم ألوى وجاراً
فكن الأوثق عهداً وكن الأوفى ذماراً